

رد على يوسف إدريس

جلس الأستاذ رشاد كامل المحرر بصباح الخير إلى الدكتور يوسف إدريس يتحدث عن كتابي «يوسف إدريس والفن القصصي» وقد ورد في سياق الحديث ما يمسنى شخصيا والكتاب أيضا . .

وسوف أتلقى تلك الشتائم. وذلك السباب ، كما يتلقاه ، الكرام فى كل مكان بالتسامح والصفح الجميل .

ولكنى ألفت نظر يوسف إدريس إلى أنى خريج متخصص . تخرجت فى كلية الآداب لا كلية الطب وأن دراستى للنقد ، ليست مجرد هواية فحسب ، فقد درست على أساتذة متخصصين أحدهم الدكتور شكرى محمد عياد الذى هاجمه يوسف إدريس فى حديثين له اعتقادا منه أنه كان مشرفا على الرسالة التى تناولت أدبه بالدراسة فأخذ يزعم أننى أردت أرضاءه بالقدح فيه لأنه كاتب قصة قصيرة يحسده على ما حقق من شهرة وهو لا يعلم أن شكرى عياد رجل على خلق ولا يمكن أن يهبط إلى هذا المستوى أبدا لا هو ولا تلاميذه . وبالتالى . لا يقبل ولا يسمح لنفسه أن يهاجم كاتباً مثل يوسف إدريس لمجرد أنه يكتب قصة قصيرة كما يكتب وأنه بنفس عليه المجد الذى حققه . فالرجل برىء من هذه التهمة ولم يكن مشرفا على الرسالة التى تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه وإنما أشرف عليها الدكتور مصطفى مندور أما عضوا اللجنة فهما الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد والدكتور رجاء عيد . والجميع لم تصبهم حرفة الأدب !

وإننى أسألك وأنا واثق من أن الجواب سيكون بالنفى .. هل قرأت كتابى الذى أرسلت إليك منه نسختين ، كنت أظن أنك سوف تتواضع فتقرأهما ، أم أنك لا تقرأ إلا لكبار النقاد . وهل يرضى كاتب مثلك أن يجلس مسترخيا لكى يقرأ له إنسان آخر عبارات مقتطعة من سياقها ، فينطلق من فيك الكريم السباب بلا حساب ؟ ألم يكن يجدر بك أن تتحرى صحة ما يلقى إليك من أقوال؟ . أين الموضوعية إذن وابن شرف الكلمة والاحساس بالمسئولية وأنت أديب يفترض فيك التحلى بهذه الخصال !؟

لقد ذكرت أنت أنني قلت عن الحرام أنها لا رواية ، وهو ما لم أقله ولكنني عندما قلت أنها ليس بها بطل ولا بطلّة بالصورة التقليدية ، لم أنته إلى القول بسقوطها فنيا بل أشدت بها وكشفت عن الأسلوب الفني الذي اتبعته في تأليفها وقد وقعت أنت في التناقض وأنت تريد أن تدافع عن الرواية ظنا منك أنني أهاجمها فهاجمتني لأنني قلت أنها ليس لها بطل . ثم عدت فقلت أن الأدب العالمي ليس لروايته أبطال في الآونة الأخيرة ، فهل أنت توافقني على ما أقول أم تعارضني . والحق أن مصدر هذا التناقض من جانبك هو أنك لم تقرأ ما كتبه عن الرواية ولو قرأته لكان لك رأى آخر .

وبعد .. «فرق المدق» لنجيب محفوظ ليس لها بطل وهي رواية جيدة وكذلك «الثلاثية» أيضا ليس لها بطل ، وقد قيل هذا عنها على لسان نقاد لهم وزنهم ، مثل الدكتور على الراعي وقد سمع بهذا نجيب محفوظ ولم يغضب لأنه يعلم ذلك ولأنه يعلم أيضا أن تلك الأحكام النقدية تصدر في سياق متكامل يكشف عن الجوانب الفنية للعمل الروائي ككل .

أن أشكال الحبكة كثيرة ، وقد نبه اليها النقاد في دراسات متنوعة كثيرة يمكنك الاطلاع عليها ، وهذا ما يعرفه المتخصصون وهم أقدر من غيرهم على الخوض في هذه المسائل .

أما عن موقفك من الشيوعية أو الماركسية وهو أمر لا يعنيني شخصيا ولا يسبب لي متاعب خاصة أو عامة . فأحب أن أوضح شيئا مهما يجب عليك أن تعرفه وهو إنني لا أتدخل في معتقدات الأشخاص ولا مذاهبهم ولا يحق لي ذلك لا أنا ولا أحد غيري ، وليس من حق أحد أن يجبر على حرية الآخر تحت أى اسم وأى شعار ، ولكنني تعرضت لهذا الموضوع لأنه كان موضوعا مطروقا خاض فيه بعض النقاد الذين نقل بعضهم - كما يقول - عن لسانك شخصيا . وكنت أريد أن أستعين بذلك على فهم أدبك ، ولست تنكر أن معرفة حياة الكاتب قد تتلقى بعض الضوء على أدبه دون أن يصبح أدبه مجرد وثيقة اجتماعية أو نفسية . ولكن الأهم من هذا كله أنني نفيت ذلك عنك بصريح العبارة فقلت .

«يبدو لي أن تحديد موقف الكاتب العقائدي أمر حيوي للغاية في الحديث عن تطوره الفني .. فعقيدة المؤلف تتدخل في صوغ شخصياته وحبكتها فقد يركز الكاتب تركيزا

عظيما على أثر العامل الاقتصادي أو أهميته في الحياة وقد يهتم بالعمق والاختلاص في العلاقات الإنسانية فقد يرى أحد الكتاب في الإرهابي شريرا مخربا في حين يراه كاتب آخر وطنيا وشهيدا . والكاتب العظيم هو الذى يهتم أكثر من غيره بالدوافع البشرية والغموض المأساوى للوضع الأخلاقى للإنسان . فالرواية التى لا تملك إلا المضمون الايديولوجى لا يمكن أن تكون رواية عظيمة إلا بصعوبة» (ص ١٢٩) .

ولقد ذكر إدريس أن أحد الأعاجم قال إنه الخامس بين كتاب القصة القصيرة فى العالم ، وأنه ليسعدنى غاية السعادة أن يكون ذلك الكلام صحيحا ، فليست كاتب قصة قصيرة وليست حاقدا عليه ، بل إنى لوائتق أن كل النقاد وأساتذة الجامعة فى أقسام اللغة العربية الذين يزعم أنهم يناصبونه العدا ، ليلج صدورهم أن يكون ترتيبه الأول . لا الخامس وأن يكون قبل «تشيكوف» المسكين الذى ساءه أننى قرنته به رفعا من قدره وتكريما له ، ولو قرأ إدريس ما كتبه فى هذا الشأن لما زعم أننى قلت عنه أنه سرق قصصه جميعا من تشيكوف وكافكا .

والحق أنى لم أهتم بحياتك الشخصية إلا بقدر ، ولم أر أنها تهمنى كثيرا ، فى ذاتها وإن كنت أعرف عنها الكثير من التفاصيل من بعض أقاربك وأبناء القرية التى ولدت فيها . ولم أشغل نفسى بالحديث عن حيك ، ومن ثم فإنى مندهش لقولك أننى ذكرت أنك تحب فلانة أو علانة من النساء لأن الكتاب «المظلوم» الذى أغضبك لم يذكر شيئا من ذلك على الاطلاق ، وأتحداك أن تأتى منه بشيء من هذا . بل وأؤكد لك أنك تخلط بين ما قلت فى هذا الكتاب وبين ما قاله آخرون فى كتب لهم .

وأنى لأذكر بغاية الدهشة أن ما وجهه إلى يوسف إدريس من شتائم ليس له سابقة فى حياتنا الأدبية ، على كثرة ما شهد الحقل الأدبى فى مصر من معارك نقدية كان هو من معاصريها .

وأخيرا فحرصا منى على مسئولية الكلمة وترفعا عن الاسفاف فى المناقشات العملية الجادة التى ينبغى أن تفرغ الحججة فيها بالحجة وحرصا على مكانة أستاذ الجامعة ، فلن أهبط إلى مستوى الرد على تلك الشتائم التى وجهها إلى يوسف إدريس^(١) .

(١) نشرت بمجلة صباح الخير القاهرية . العدد ١٣٣٨ . أغسطس ١٩٨١ ص ٢٤ .